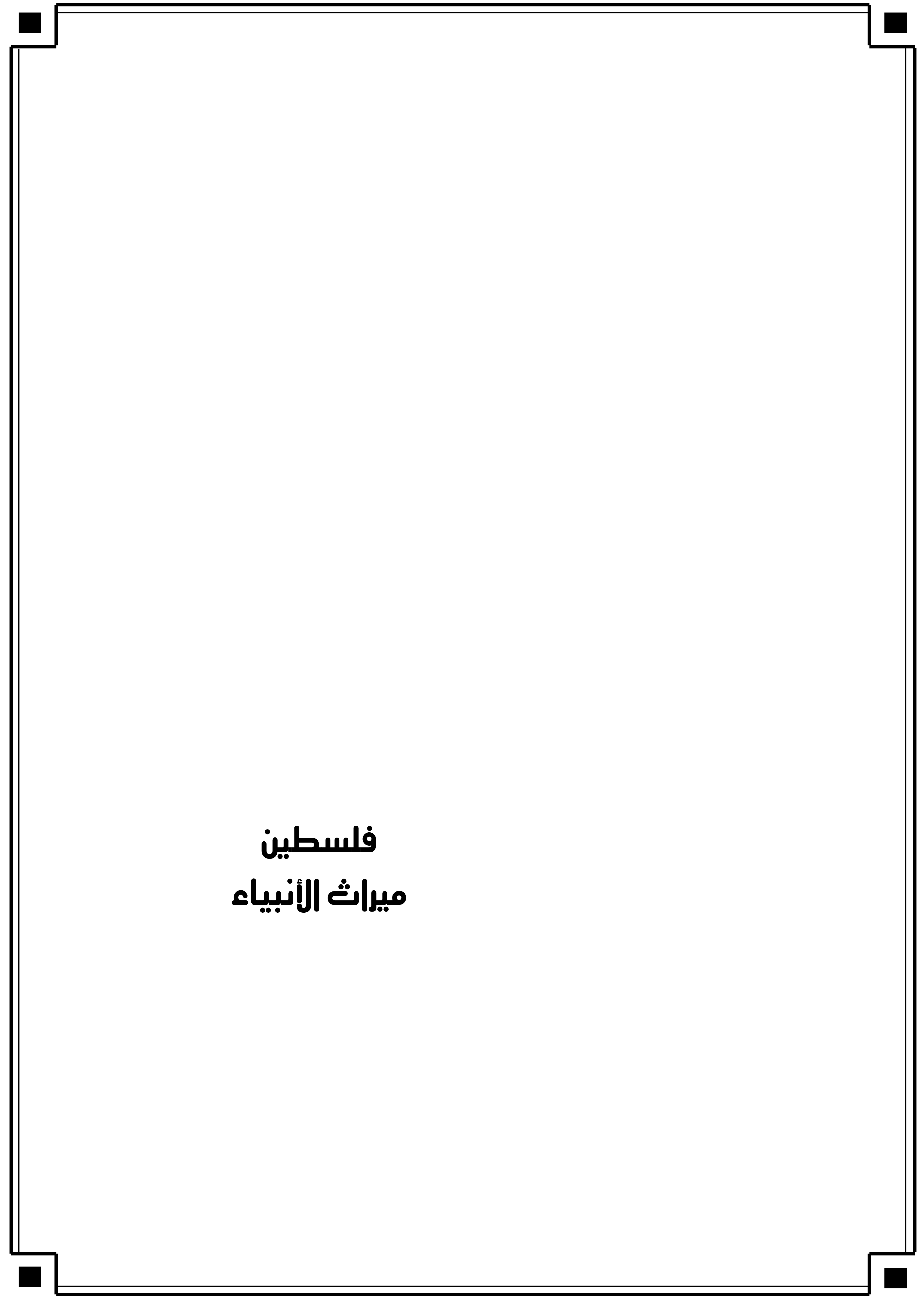


فلسطين
ميراث الأنبياء

فلسطين
ميراث الأنبياء

الدكتور

مأمون فريز جرار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله الطيبين ورضي الله عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد أطلعت على كتاب «بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين/ قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة» للحاج زكي الغول، وهو كتاب يحاول مؤلفه تقديم تصور جديد لعلاقة بني إسرائيل بفلسطين، ولا أشك في أن باعث المؤلف هو مقاومة الاحتلال اليهودي لفلسطين مقاومة فكرية بنفي حجتهم التاريخية ودعوى العودة إلى أرض الميعاد. ولكن المؤلف في سعيه هذا قد وقع في مخالفات واضحة للقرآن الكريم والحديث الشريف ولما تواتر لدى علماء هذه الأمة عبر العصور، مما دفعني إلى محاورته في هذا الكتاب الذي سعيت فيه إلى أن أكون موضوعياً، جلاء الحق بغيتي، والوصول إلى الحق رائدي. وقد قدمت ملخصاً لآراء المؤلف لتكون لدى قارئ كتابي صورة مجملة عنها، وليدخل على الحوار المفصل على بينة.

وقد اعتمدت على ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى أقوال عدد من أهل العلم من قدماء ومعاصرين. وأرجو أن يكون في هذا الكتاب جلاء لقضية مهمة تمسّ العقيدة، وتكشف طبيعة العلاقة الحقيقية بين بني إسرائيل وفلسطين ، ولا ينبغي للشعور الوطني أو القومي أن يتجاوز الثوابت أو يتخطى المسلّمات ، بل أن يقع في المحذور من

التطـاول علـى أنبيـاء الله الـذين لهـم فـي قلـب المسـلم مكانـة لا تطاولها الشبهات، بـل ينزهون عن كل نقيصـة أو شـائبة تحـوم حولهم مما افتراه عليهم أعداء الله من أقوال وروايات لا تصـح نسبتها إليهم والله الهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد

ظهر منذ سنتين (حين شرعت في كتابة هذا الكتاب) في شهر شوال ١٤٢١هـ الموافق لشهر شباط/٢٠٠١ كتاب بعنوان «بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين- قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة» من تأليف الحاج زكي علي الغول (أمين القدس/عضو اتحاد المؤرخين العرب)؛ صدر عن دار الكرمل في عمان.(وصدرت من الكتاب طبعة ثانية في تموز ٢٠٠١ لم يضف فيها المؤلف جديدا سوى ملحق عما كان للكتاب من صدى في الجرائد الأردنية ، ولم يضع المؤلف على الغلاف خريطة كما كان في الطبعة الأولى).

والكتاب فيما يبدو من عنوانه يمضي على الفكرة التي روّج لها الدكتور كمال الصليبي، بدراساته التي يرى فيها أن التوراة جاءت من جزيرة العرب، وأن بني إسرائيل لم تكن لهم صلة بفلسطين. ولكن الحاج زكي الغول لم يذكر الدكتور كمال الصليبي ولم يشر إلى أي من دراساته.

يقع كتاب الحاج زكي الغول مع ملاحقه في ست وخمسين صفحة من القطع المتوسط، وهو يتضمن أقوالاً وآراء تستحق الوقوف عندها ومحاورتها لأنّ فيها مجازفة في الاستنتاج، واعتماداً ناقصاً على ما ورد في التوراة (العهد القديم)، واجتزاءً لما ورد في القرآن الكريم من آيات تتعلق ببني إسرائيل وأنبيائهم، وتجاهلاً لما ورد في الحديث النبوي، وإعراضاً عن تراث طويل عريض من كتب التفسير والتاريخ وغيرها.

وليكون الحوار موضوعياً، ولنصل من خلاله إلى الحق الذي لا يناقض الكتاب والسنة الصحيحة : المصدرين الموثوقين، وليكون القارئ على بينة من أمره؛ سأورد ملخصاً لما ورد في الكتاب ثم أقف بعد ذلك على ما ينبغي الوقوف عنده من تلك الآراء.

يتحدث المؤلف في بداية الكتاب تحت عنوان: لما هذا الكتاب؟ مبيناً أن سبب تأليفه هو ما يشاع من أن لليهود في فلسطين آثاراً ومقدسات. وأن بني إسرائيل كانوا يحكمون فيها، وأنهم كانت لهم ممالك إحداها في القدس والثانية في نابلس، وأن داود وسليمان عليهما السلام عاشا في فلسطين، ويرى أن بعض المؤرخين العرب الذي يوردون مثل هذه الإشاعات ربما أخذوها عن مؤلفين أجانب. وقد لفت نظر المؤلف عدم وجود آثار لليهود في فلسطين كلها.

وبدأ المؤلف ببحث سيرة بني إسرائيل في القرآن الكريم فوجد أنهم خرجوا من أرض فرعون عن طريق البحر نحو أرض الحجاز (برية فاران) شأنهم في هذه الوجهة شأن موسى عليه السلام عندما قتل القبطي فتوجه إلى أرض مدين في الحجاز. ورجع الحاج زكي الغول إلى العهد القديم فوجده يذكر أن بني إسرائيل لما خرجوا من أرض فرعون لم يهدهم الله طريق أرض الفلسطينيين مع كونها قريبة بل أدارهم في طريق برية سوف (البحر الأحمر) ثم قطعوا البحر إلى الحجاز وانتشروا في الجزيرة العربية.

ويرى المؤلف أن القراءة غير المنحازة وغير الجاهلة لتاريخ القدس والعهد القديم وكتب التاريخ العربية القديمة، وفهم ما جاء في القرآن الكريم، وبعض ما جاء في كتب حديثة لمؤلفين غربيين ويهود يوصل إلى نتيجة هي:

لا علاقة لبني إسرائيل بتاريخ فلسطين عامة، والقدس خاصة. وأن اليهود لم يكونوا في فلسطين في السبي البابلي بل كانوا في جزيرة العرب.

ويتحدث الحاج زكي الغول عن المسجد الأقصى فيرى أنه ما دام المسجد الحرام قد بني منذ عهد آدم فالمسجد الأقصى موجود منذ ذلك العهد. ويربط تاريخ المسجد الأقصى بقبيلة يبوس الكنعانية التي جاءت إلى أرض القدس قبل خمسة آلاف عام. وكان اليبوسيون موحدين، وبنوا دور عبادتهم في مكان المسجد الأقصى تحت البناء القائم، ودليل أنهم موحدون أن إبراهيم عليه السلام عندما جاء إلى فلسطين تلقّاه كاهن يبوس، الملك صادق، وقدم له القرى، ومنه الخبز، وبارك إبراهيم، وقبل إبراهيم ذلك منه. ولو كان الكاهن غير موحد لما قبل منه شيئاً.

ويشير إلى توجه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بإسماعيل وأمه إلى برية فاران التي توجه إليها بنو إسرائيل من بعد حين خرجوا من مصر وقطعوا البحر، ويرى أن صلة بني إسرائيل قد انقطعت بفلسطين عندما توجه يعقوب ونسله إلى مصر وأخذوا مقتنياتها ولم يبق فيها لهم أثر.

وعندما هرب موسى من مصر بعد أن قتل القبطي وصل إلى أرض مدين في الحجاز، وفي طريق عودته إلى مصر آنس وهو في أرض الحجاز من جانب الطور ناراً. فالطور في الحجاز لا في سيناء. وعندما قبل فرعون أن يطلق بني إسرائيل وسمح لهم بمغادرة مصر مع موسى خرجوا متجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب على ساحل البحر الأحمر، ولم يكن الخروج فوق رمال سيناء كما يحلو للبعض أن يتخيلوه أو كما يقع البعض في الجهل العلمي ويأتي بهم إلى فلسطين.

ويقف الحاج زكي الغول على بعض الأسماء التي وردت في العهد القديم ويبحث عن مقابل لها في الحجاز، ومنها: نبع مارة- وهو بطن مر، نبع قرب مكة. ومسّه في الحجاز ويورد من العهد القديم ما يشير إلى نزول بني إسرائيل في برية فاران.

ويشير إلى أن التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام محدودة الصفحات، والعهد القديم المتداول الآن يقع في ألف وثلاثمئة صفحة، ويستنتج من ذلك أن اليهود وضعوا لهم تاريخاً من خيالهم، صوروا فيه ماضيهم بأنه كان مميزاً بالقوة والجبروت واحتلال أرض الغير (...) ويرى أن التوراة أنزلت على موسى عليه السلام في الحجاز في جبل اللوز كما ذكر بعض الباحثين المعاصرين. وقد أقام موسى وهارون وبنو إسرائيل في برية فاران، وأرسلوا جواسيس إلى أرض العمالقة، ورجعوا بعد أربعين يوماً، وحدثوه أن بني عناق والعمالقة ساكنون في الجنوب، ويستنتج من ذلك أن الجنوب هو اليمن الواقع جنوب فاران (الحجاز). وتوفي موسى عليه السلام في

صحراء الحجاز، ودفن هناك، ولم يخرج من الجزيرة العربية.

وحين جاء المسيح عليه السلام بدين النصرانية كان اليهود في اليمن، وهم الذين أوغروا صدر ملك تبع على أن يحارب الذين تنصروا في اليمن.

ويتساءل: أين كان بنو إسرائيل ما بين موسى وداود؟ وما هو تاريخهم؟ ويجيب: قطعاً لم يكونوا في فلسطين، لأنه لا تاريخ لهم فيها ولا آثار، وسبب هذا أنهم لم يكونوا في فلسطين، ولم يحكموا فيها، لأن انتشار اليهود كان في الجزيرة العربية فقط، والسبي البابلي تمّ من الجزيرة العربية وسليمان وبلقيس كانا يحكمان في الفترة نفسها. ومما يدل على أن سليمان كان في اليمن أنه عندما تفقد الطير وسأل عن الهدهد، أن الهدهد (مكث غير بعيد) وهذا يعني أن مكان إقامة سليمان لم يكن يبعد آلاف الكيلو مترات عن سبأ بل عشرات الكيلو مترات.

ويستند الحاج زكي الغول إلى ذكر بعض المعالم أو الأماكن أو الكلمات التي يرى أنها ذات صلة باليمن ومنها: وادي النمل، وعين القطر، وكلمة منسأة التي تعني العصا، وهي حبشية شاعت في اليمن. والريح العاصفة كانت تجري بأمر سليمان إلى الأرض المباركة، أي يجريها نحو أرض لم يكن مقيماً فيها. وهذا يعني أنه لم يكن في الأرض المباركة، لا عند البيت الحرام ولا عند المسجد الأقصى.

وأورد الحاج زكي الغول في نهاية كتابه ملاحق فيها صور لأماكن وخرائط: لجبل اللوز، شمال غرب الجزيرة العربية الذي اهتدى إليه الباحثان وليمز وكرونك مسترشدين بما ورد في الكتاب المقدس إلى أنه الجبل الحقيقي الذي تسلم النبي موسى ألواح الرب من عليه. وصورة لعين مارة على ساحل الجزيرة العربية المقابل لمضائق تيران، وخريطة للشرق الأوسط كما وردت على غلاف الكتاب المقدس من منشورات دار الكتاب المقدس ١٩٩٧م ولعل مما يلفت النظر في هذه الخارطة التي وردت على غلاف كتابه كذلك أن فاران ليست في منطقة الحجاز بل في صحراء سيناء حيث ورد على الجزء الجنوبي من سيناء ثلاث كلمات متتابعة طولياً: فاران – سيناء – حوريب. كما ورد اسم مدين- ميديان مكتوباً على الجزء الشرقي من خليج العقبة والجزء الغربي منه الواقع في سيناء. ويبدو أن المؤلف لم ينتبه إلى أن هذه الخارطة كما هي عليه لا تخدم الهدف الذي رمى إلى تحقيقه من كتابه.(أزال المؤلف الخريطة عن الغلاف في الطبعة الثانية تموز ٢٠٠١)

ومما ورد في الملاحق رأيٌ لعالم الآثار الإسرائيلي فنكلشتاين الذي يرى أن شخصية داود (عليه السلام) كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحد مملكتي يهودا وإسرائيل هي مجرد خيال ووهم، ولم يكن لها وجود حقيقي!!، ووجود باني الهيكل وهو سليمان بن داود مشكوك فيها أيضاً !!، ولا دليل على ما ورد في التوراة أنه حكم إمبراطورية كبيرة تمتد من مصر حتى نهر الفرات. ويختتم فنكلشتاين رأيه بقوله: «مهما كان الأمر، فربما كان هناك داود وسليمان. لكنهما لم يكونا قائدين عظيمين

وإنما شيخا(!!) قبيلة متوسطة الحجم في القرن العاشر قبل الميلاد.

هذا ملخص أرجو أن يكون وافياً لما ورد في كتاب الحاج زكي الغول سعيت إلى تقديم أكثره بلغة الكاتب ليكون القارئ على بينة مما سأقوله في محاورته.

بين يدي الحوار

منذ بدأ الصراع في العصر الحديث بين المسلمين واليهود على فلسطين اتخذت بعض الدراسات حول فلسطين وتاريخها منحى قومياً جرد فلسطين من البعد الديني، وتجاهل التصور الإسلامي للتاريخ والإنسان ولتاريخ الأرض المقدسة في فلسطين، ذلك التصور الذي يقوم على سلسلة من النبوّات والرسالات الربانية.

لقد انطلق هذا الاتجاه في الدراسات من التصور القومي أو الوطني، الذي هو جزء من التصور العلماني الذي شاع في حياتنا، وتراجع الدين ليقتصر على جوانب محدودة من حياتنا في العبادات والأحوال الشخصية!! ولذلك اختلطت الرؤية، واضطراب الفهم، حتى وجدنا في عصرنا من يعتزّ بـ «القوم الجبارين» الذين كانوا في فلسطين مذكراً الغزاة المحتلين من يهود عصرنا بالقول: (إن فيها قوماً جبارين)، وكأن في هذا التذكير ربطاً لفلسطيني اليوم بجباري الأمس!! ولو حكّمنا التصور الإسلامي لعلمنا أن القوم الجبارين الذين كانوا في فلسطين، أيّاً كان جنسهم، وأيّاً كانت صلتنا العرقية بهم،كانوا كافرين بالله مشركين به وكانوا ضالين عن طريق الهدى ، وأن بني إسرائيل في ذلك الزمان، بقيادة موسى عليه السلام، كانوا مؤمنين أو أتباع نبيّ يسدد خطاهم، على ما كان في مسيرتهم من عوج، فهم بالمنطق الإيماني أقرب إلينا من الجبارين.

إن علينا في غمرة الصراع القائم مع اليهود المحتلين

لفلسطين في زماننا أن نميز بين أمرين:

الصلة التاريخية لبني إسرائيل بفلسطين، والزعم بحق اليهود في العودة إلى فلسطين وإقامة دولتهم فيها.

إن الذي نؤمن به وفقا للتصور الإيماني ألا حق لليهود في فلسطين في زماننا، فليس لهم حق تاريخي، ولا حق ديني.

أما الحق التاريخي فدعوى باطلة زائفة، لأننا لو أردنا أن نعيد رسم خريطة الأرض وفق هذا الحق، بدعوى إقامة قوم في أرض ما مدّة من الزمن، لاختلطت الأوراق، واضطرب ميزان الأرض، وقامت بين الناس حروب لا نهاية لها، علماً بأن مدة إقامة العرب في فلسطين قبل الميلاد، ومرحلة الفتح الإسلامي لها وما تلاها، أعظم بكثير من مدة إقامة بني إسرائيل فيها.

وأما الحق الديني لبني إسرائيل فقد كان لهم في فترة زمنية سابقة يوم كانت النبوة فيهم وانتهى هذا الحق بزوال النبوة عنهم. كان لهم حق فيها يوم خرجوا مع نبي الله موسى عليه السلام من مصر، وقال لهم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١].

لكنهم نكلوا عن الدخول، وعصوا أمر ربهم، ولم يطيعوا نبيهم، فضُرب عليهم التيه أربعين سنة. ثم دخلوها مع نبي الله يوشع بن نون عليه السلام، وبقي لهم هذا الحق الديني عندما كانت النبوة فيهم. وكان الأنبياء منهم يرثون الأرض المقدسة نبيا بعد نبي، ويقومون على عبادة الله في أرض النبوات فلسطين. فلما نُزعت منهم النبوة بعد أن أُرسل نبينا محمد ﷺ

آلت فلسطين إلى الإسلام والمسلمين بميراث النبوة لا بالحق الوطني ولا القومي.

وكان ذلك التوريث في رحلة الإسراء والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، بإمامة النبي محمد ﷺ للأنبياء عليهم السلام في رحابه، إعلاناً لوراثة هذا المسجد منهم، ووراثة المسلمين أتباع محمد ﷺ للمسجد الأقصى وما حوله من الأرض المباركة وعلينا أن نتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وتم بعد ذلك الفتح الإسلامي للأرض المباركة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتولى المسلمون العناية بالقدس والمسجد الأقصى منذ ذلك العهد، باستثناء مرحلة الغزو الفرنجي في القرنين الخامس والسادس للهجرة. وفي عصرنا هذا منذ سقوط المسجد الأقصى في أيدي اليهود عام ١٩٦٧م. وهي مرحلة عارضة ستزول بإذن الله، وسيعود المسجد الأقصى إلى حمى المسلمين ورثته الحقيقيين.

إن صراعنا مع اليهود ينبغي ألا يفقدنا توازننا في النظر إلى تاريخ بني إسرائيل فننكر حقائق التاريخ، وحقائق القرآن الكريم والسنة الشريفة. لأنّ هذا الإنكار سيوقعنا في محظورات شرعية تمس العقيدة، وسيوقعنا في محذورات سياسية تمسّ الأمن!

ومن هذا الباب الفكرة التي أقام عليها الحاج زكي الغول كتابه. فهو ينفي الصلة التاريخية لنبي إسرائيل بفلسطين لينفي حقهم في إقامة دولة لهم فيها.

والنتيجة التي أراد الوصول إليها حق، ولكنها قامت على مقدمة تناقض الدين والعقيدة، كما سأبين من بعد، وتناقض مصلحة الأمة، لأن ما قاله، وما سبقه إليه غيره من أهل هذا الاتجاه، لن يقنع اليهود بألا صلة لهم بفلسطين، وإما سيمد أطماعهم إلى قلب الجزيرة العربية وأعماقها من الحجاز إلى اليمن، وسيكون ما نمدّهم به من أقوال حجة جديدة منا، إضافة إلى ما يرونه حجة قديمة لديهم.

يضاف إلى هذا أن هذا الفهم الجديد لعلاقة بني إسرائيل بفلسطين يناقض ما ثبت في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما تلقاه جيل الصحابة وأجيال العلماء من بعدهم بالقبول والإيمان.

بل إننا نجد أن بعض الباحثين الذين تجاهلوا الميزان الإسلامي في النظر إلى الأحداث والأشخاص يتطاولون على شخصيات أنبياء الله، ويصفونهم بما لا يليق بحقهم، ولا يوافق عصمتهم. وأضرب لذلك مثلاً ما قاله المؤرخ عارف العارف عن سليمان عليه السلام بصيغة الجزم:

«وقد تزوج سليمان في أواخر سني حكمه نساءً غير ابنة فرعون من الأمم القريبة التي نهى الله بني إسرائيل عن مخالطتها، ومال إلى آلهتهن، وعبد أصنامهن، وبنى بيتاً للأوثان بالجبل الذي أمام أورشليم، طوله مائة ذراع، وعرضه خمسون ذراعاً، وعلوّه ثلاثون ذراعاً، ويعزو بنو إسرائيل خراب ملكه

بعد موته إلى عمله هذا» !!!(المفصل في تاريخ القدس، ص: ١٤ ــ ١٥).

فهل نقبل هذا الكلام وأمثاله عن نبي الله سليمان وغيره من الأنبياء المعصومين؟

وهل يصدق مسلم أن نبياً من أنبياء الله يعبد الأوثان مراعاة لزوجته الوثنية، ويبني لأوثانها معبداً؟!!

إننا نستذكر أمام هذا القول تنزيه الله تعالى لعبده ونبيه سليمان عليه السلام مما قذفه به الكافرون من بني إسرائيل الذين حرّفوا كلام الله، وافتروا على أنبيائه في عهدهم القديم حين جعلوه ساحراً فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

إن المسلم لا يقبل أن يتم التهوين من صورة أنبياء الله الذين أنعم عليهم، ووصف القرآن الكريم ما آتاهم من الملك؛ إرضاء لهوى قومي، أو نزعة وطنية.

وإنني لست معنياً بما نسجه اليهود من خيال وما افتروا من أحوال وأقوال، بل يعنيني أن أومن بما ورد في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عن أنبيائه المكرمين. وأن أستلهم صورة بني إسرائيل من هذين المصدرين الموثوقين. وهي في مجملها صورة شديدة السواد في كثير من جوانبها، لا يشرق فيها إلا الأنبياء وبعض من تبعهم من الصالحين، والصورة التي يقدمها القرآن الكريم لبني إسرائيل هي الحق المبين الذي لا شبهة فيه. فقد قدمهم القرآن الكريم على حقيقتهم، بالذل الذي أصابهم في مصر،

بتقتيل الأبناء، واستحياء النساء، ثم في إنقاذ موسى عليه السلام لهم، ثم في قسوة قلوبهم، وفي نزعتهم الحسية في طلب معبود مشهود: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وباتخاذهم العجل، وجبنهم ورفضهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، وتكذيبهم أنبياء الله، وقتلهم كثيراً منهم، إلى غير ذلك من جوانب الصورة.

وفي القرآن الكريم حضور لبني إسرائيل لا يشبهه حضور أمة أخرى، وفيه حوار طويل معهم، ينبغي أن يستوقفنا. لقد كانوا هم المؤمنين في زمن ساد فيه الشرك، وفضلهم الله تعالى بالنبوة والإيمان على غيرهم من أهل زمانهم، ولكن تلك الأفضلية زالت عنهم عندما جاءت خير أمة أخرجت للناس من أتباع محمد ﷺ.

وأختم قبل أن أبدأ الحوار المفصل مع الحاج زكي الغول، بما قاله ابن كثير:

«وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة، ووُجد فيها أنبياء وعلماء، وعُبّاد وزهّاد وألبّاء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء لكنهم كانوا فبادوا، وتبدلوا كما بُدّلت شريعتهم، ومُسخوا قردة وخنازير...» (البداية والنهاية ٢٩٤/١).

وكلمة لا بد منها هنا هي: أن البحث في هذا الكتاب بحث في قضية عامة لا في شأن شخصي، ولذلك لا يجوز أن يكون للحوار رد فعل شخصي ، أو خصام بسبب اختلاف الآراء،

وليس الهدف المغالبة بل الوصول إلى الحق، والقضية قضية وطن مغتصب نتنازع فيه مع اليهود على ملكيته، نعم! ولكنها قبل ذلك قضية إيمان ودين نلقى به الله تعالى .

فلنبدأ الحوار

(١)

عنوان الكتاب ومصادره

جعل الحاج زكي الغول عنوان كتابه: (بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين/قراءة جديدة في القرآن الكريم والتوراة).

والعنوان يوحي بأننا أمام دراسة تعتمد على القرآن الكريم والتوراة لتقديم رأي جديد شامل وعميق في قضية تثير إشكالات كثيرة في عصرنا، وهي: الصلة التاريخية لبني إسرائيل بفلسطين. والمنهج العلمي يقتضي جمع أجزاء الصورة الخاصة بالموضوع من القرآن الكريم ومن التوراة أو العهد القديم الذي يشمل أسفار التوراة وسواها.

وقد كنت أتوقع أن أجد الآيات الخاصة ببني إسرائيل التي تشغل حيزاً كبيراً من القرآن الكريم، موضع دراسة واستنتاج، ولو رجعنا إلى الكتاب وبحثنا عن الآيات التي رجع إليها المؤلف لوجدناها محدودة معدودة وسأوردها ليكون القارئ على بينة من الأمر ولا يخدع بعنوان الكتاب (قراءة جديدة في القرآن...)

وهذه الآيات هي:

١- الآية ٩٦ من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

٢- الآية ٩٣ من سورة يوسف: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

٣- الآية ٥٤ من سورة الشعراء قول فرعون عن بني إسرائيل: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٤- الآيتان ٢٩ – ٣٠ من سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

٥- الآيات ٦٠ ـ ٦٦ من سورة الشعراء:﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦)﴾.

٦- الآية ٥٠ من سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)﴾.

٧- الآيات الخاصة بأصحاب الأخدود من سورة البروج: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾.

٨- الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة النمل:﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠)

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٢١) فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ (٢٣)﴾.

٩- الآيات ١٧ -١٨ من سورة النمل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨)﴾.

١٠- الآية ١٢ من سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾.

١١- الآية ١٤ من سورة سبأ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾.

١٢- الآية ٨١ من سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ .

وقد حرصت على نقل الآيات كما وردت في تسلسل الكتاب ليرى القارئ أن الكتاب ليس قراءة جديدة حقيقية في القرآن الكريم، كما ورد في العنوان، بل هو قراءة انتقائية؛ وإلا لوجدنا فيه الآيات التي تبلغ المئات.

لقد تبنى المؤلف فكرة ثم اختار من آيات القرآن الكريم ما وظفه لخدمة تلك الفكرة، ولم يجعل القرآن الكريم والسنة النبوية مورداً لتكوين التصور، أو استقاء المعلومات، مما جعل تعامله مع القرآن الكريم أقرب إلى تحريف الآيات عن مواضعها، بتقديم صورة غير مكتملة، وتجاهل آيات تُناقض ما قدمه من تصور وسيجد القارئ بيان ذلك من بعد بإذن الله .

ولا أدري كيف اعتمد المؤلف على بعض نصوص التوراة محتجاً بها لتأييد فكرته، وهل التوراة أو العهد القديم مصدر موثوق عنده؟ لاسيما وهو يقول :

«وإذا كانت التوراة التي أعطيت لموسى كانت مكتوبة على لوحي حجارة فلنا أن نتصور كم يكون عدد صفحاتها على الورق من أصل صفحات العهد القديم التي تزيد على ١٣٠٠ صفحة، فمن أين جاءت كل تلك الصفحات؟ قطعاً من عند غير الله، بل كتبوها في فترات لاحقات لقرون وقرون بعد وفاة موسى عليه السلام» (ص: ٢٤).

إن الميزان الكاشف لما هو حق وما هو باطل فيما بين أيدينا من أسفار العهد القديم هو القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكن المؤلف لم يعتمد عليهما في كشف الحق من الباطل بل اتخذ موقفاً شخصياً اعتمد فيه على بعض الآيات وبعض النصوص من التوراة أو العهد القديم الذي قال فيه:

«وهكذا إن ما كتبه اليهود وأضافوه إلى التوراة، وأسموه العهد القديم هو عبارة عن تاريخ تداخل فيه السهو والخطأ، وتداخل فيه عدم صدق الرواية بعد مرور الزمن، وتداخلت فيه العواطف والأماني والآمال، بأنهم كانوا مثل الأمم الأخرى كالآشوريين والبابليين والفرس وغيرهم من الأمم التي كان لها قوة وبأس وسيطرة على غيرهم، لذلك وضعوا لهم تاريخاً من خيالهم صوروا فيه ماضيهم بأنه كان مميّزاً بالقوة والجبروت. واحتلال أرض الغير وبلادهم وإفناء أهل البلاد وقتلهم وتعذيبهم، بل قتل حيواناتهم، وإحراق مزروعاتهم وقراهم ومدنهم، وذلك من أجل أن يغطوا على الذل الذي كانوا فيه في مصر، وبعد الخروج حتى من الله عز وجل الذي انتقم منهم بعد عصيانهم على موسى، ورفضهم التوجه إلى أراضي العمالقة في وسط الجزيرة العربية وجنوبها، لأنهم جبنوا عن ملاقاة أهل البلاد الموجودين هناك فكانت ردة الفعل أن الذين كتبوا وأرخوا تخيلوا أشياء مما عند الأمم القوية، ونسجوا لسلفهم تاريخاً مثله (ص٢٤).

إنني أقول قول الواثق: لقد كان عنوان الكتاب أكبر من حقيقته شكلاً ومضموناً، وكان التعامل مع القرآن الكريم تعاملاً غير علمي، لأنه كان تعاملاً انتقائياً كما قلت من قبل، وكان تعامل بحث عن شواهد لفكرة لا تتفق كل نصوصه معها. وسأورد من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال المفسرين والمؤرخين ما يكمل الجوانب الناقصة من الصورة، وما ينقض الفكرة التي تبناها المؤلف.

(٢)

يعقوب عليه السلام وفلسطين

لا أدري كيف جزم المؤلف في حديثه عن خروج يعقوب عليه السلام ونسله من فلسطين بالخلاصة التالية:

«والخلاصة أن يعقوب ونسله ومقتنياتهم جميعاً غادروا فلسطين ولم يبق لهم فيها أثر...» (ص:١٥).

ولا أدري ماذا يقول المؤلف عن مغارة الأنبياء في الخليل، ألم يكن فيها والد يعقوب وجده: إسحاق وإبراهيم عليهما السلام.

إن المتواتر لدى الناس، وما ورد في كتب التاريخ الإسلامي لا يتفق مع ما ذهب إليه المؤلف، وليراجع إن شاء كتاب «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» لمجير الدين الحنبلي العليمي، و«المفصل في تاريخ القدس» لعارف العارف. وإليه ما قاله عبد الوهاب النجار في شأن يعقوب عليه السلام:

«وقد عاش يعقوب سبعاً وأربعين ومائة سنة، ومات على رأس سبع عشرة سنة من قدومه إلى مصر، وبارك ابني يوسف: أفرايم ومنسي، ودعا لهما، وجعلهما صاحبي نَصيبيْنِ كأولاد يعقوب الصُلْبيين في الأرض المقدسة التي يملكها بنو إسرائيل، وهي فلسطين، ودعا أولاده وباركهم، وتنبأ لهم بما سيلاقي كل منهم ونسله إجمالاً، وأوصاهم بالاستمساك بالدين:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا

تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقد مات يعقوب بعدما أوصى أن يُدفن عند أبيه وجده، فأمر يوسف الأطباء بتحنيطه، فحنطوه، وحُمل إلى فلسطين، ودُفن هناك كما أوصى «قصص الأنبياء ص: ١٥».

(٣)

مَدْيَنُ

يذكر المؤلف أن موسى عليه السلام عندما قتل القبطي هرب من مصر حتى وصل إلى مدين في أرض الحجاز قرب شاطئ البحر الأحمر (بحر سوف) غربي الجزيرة العربية. (ص١٦)

وتوجه موسى عليه السلام تلقاء مدين مُسلَّم به، نطق به القرآن الكريم. ولكنْ هناك أمرٌ يحتاج إلى بيان وتصحيح هو موقع مدين على الخريطة أو على الأرض. لأن القول بأن مدين في أرض الحجاز بإطلاق دون تحديد مُلبسٌ، يذهب بالقارئ إلى مكة والمدينة. وهذه قضية أولى. والقضية الأخرى هي أن المؤلف ربط بين رحلة موسى عليه السلام إلى مدين وخروج بني إسرائيل مع موسى عليه السلام بعد أن انشق لهم البحر، ونجده يقول إن:

«موسى كان على علم ودراية بأرض الحجاز وأنه عاش فيها عشر سنوات (ص١٦).

وذلك امتداداً للفكرة التي بنى عليها كتابه وهي أن بني إسرائيل لم يدخلوا فلسطين بل لم يتجهوا إلى سيناء ولا إلى بلاد الشام.

والذي يلفت النظر أن المؤلف لم يحدد موقع مدين، بل اكتفى بقوله إنها في أرض الحجاز، فأين تقع مدين؟

جاء في معجم البلدان: «قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر الذي استقى منه موسى عليه السلام لسائمة شعيب. قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بُني عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري (...) وقيل: مدين هي كفر منده من أعمال طبرية، وعندها أيضاً البئر والصخرة (معجم البلدان/موقع الوراق على الإنترنت).

وجاء فيه عن كفر منده: «قرية بين عكا وطبرية بالأردن، يقال لها: مدين المذكورة في القرآن. والمشهور أن مدين في شرقي الطور. وفي كفر منده قبر صفوراء، زوجة موسى عليه السلام، وبه الجب الذي قلع الصخرة من عليه، وسقى لهما، والصخرة باقية هناك إلى الآن» (معجم البلدان/موقع الوراق على الإنترنت).

وقال ابن كثير: «كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام» (البداية والنهاية ١٧٣/١).

وقال عبد الوهاب النجار: «مدين بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين...» (قصص الأنبياء ص ١٦٥).

ولو أخذنا بقول من قال إن مدين توازي تبوك باتجاه البحر ورجعنا إلى خريطة معاصرة لوجدنا أنها تقع على الجزء الجنوبي من خليج العقبة في موقع أعلى من رأس محمد الذي تنتهي به شبه جزيرة سيناء.

ويبدو من بعض الأقوال السابقة أن مدين في تلك المرحلة لم تكن مدينة محددة بل منطقة يجول فيها أهل تلك الديار ينتقلون فيها بأنعامهم.

وخلاصة القول أن موسى عليه السلام لم يتوجه إلى الحجاز (على إطلاق المعنى) بل إلى موقع في شمال غرب الجزيرة العربية هي أقرب إلى جنوب فلسطين والأردن منها إلى الحجاز (مكة والمدينة) – هذا في رحلته تلقاء مدين التي أعقبها رجوع إلى مصر، ولا يستقيم ما قاله المؤلف بأن موسى عليه السلام كان على خبرة بأرض الحجاز، بل كانت خبرته في السنوات العشر التي قضاها في مدين خاصة بتلك المنطقة، والحجاز بلاد واسعة ممتدة، وموسى عليه السلام لم يكن رحالة، فأنى له أن يكون خبيراً بتلك البلاد؟ اللهم إلا أن تكون تلك الخبرة لخدمة الفكرة التي وضعها المؤلف وهي توجه بني إسرائيل من بعد مع موسى عليه السلام إلى الحجاز لا إلى شبه جزيرة سيناء ولا إلى بلاد الشام.

(٤)

الطور

يقدم المؤلف تصوراً جغرافياً لأحداث التاريخ التي تحدث عنها، ومن ذلك رأيه في موقع الطور، فهو ليس في سيناء، بل في أرض الحجاز. وهو يقول في ذلك:

«ولما قضى موسى الأجل أي السنوات العشر سار بأهله عائداً إلى أرض فرعون آنس وهو في أرض الحجاز من جانب الطور ناراً» (ص١٦).

فما دلالة لفظة الطور؟ وهل هو طور واحد ذلك الذي آنس موسى عليه السلام من جانبه ناراً وتلقى الوحي عنده، ثم هل هو الذي ذهب إليه لميقات ربه بعد الخروج من مصر؟

قال الراغب الأصفهاني في دلالة الطور: «اسم جبل مخصوص وقيل اسم لكل جبل» (مفردات القرآن ص ٥٢٨).

وورد في تفسير ابن كثير في أكثر من موضع من المواضع التي وردت فيها لفظة الطور في القرآن الكريم ما يلي:

«عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور» (تفسير القرآن العظيم ١: ١٠٨ – ١٠٩).

وجاء في تفسير ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

«والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإذا عَرِيَ عنها سُمّي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام..» (تفسير القرآن العظيم ٢٥٣/٣).

وجاء في تفسير طور سينين بربطه بما سبقه وتبعه في سورة التين:

«وقال بعض الأئمة: هذه محالٌ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبيرة: فالأول: محله التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. والثاني طور سنين وهو: طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث: مكة وهو البلد الأمين..» (تفسير القرآن العظيم ٥٦٣/٤).

ولا أدري كيف جزم المؤلف أن الطور الذي آنس موسى عليه السلام من جانبه ناراً كان في أرض الحجاز**!!**

إن المتوقع من موسى عليه السلام وهو عائد من مدين إلى مصر عن طريق البر، أن يتجه شمالاً نحو رأس خليج العقبة، (أيلة) ثم التوجه نحو سيناء، ويبدو أن موسى عليه السلام قد ضل طريقه في مرحلة من مراحل الرحلة، والدليل على ذلك قوله:

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠].

ومعلوم أن طريقاً للتجارة كان يمتد من بلاد الشام حتى مصر

عبر سيناء، وهو الطريق الذي سلكه التجار الذين باعوا يوسف عليه السلام في مصر، وهو الطريق الذي سلكه إخوة يوسف عليه السلام، في رحلاتهم إلى مصر قبل أن يجتمع شمل يعقوب ويوسف عليهما السلام.

فلماذا جعل المؤلف الطور في بلاد الحجاز، أي في شمال غربه، أو لنقل على الجانب الأيمن من خليج العقبة؟ والنصوص القرآنية تشير إلى طور سيناء أو طور سينين، وكذلك فهم المفسرون. والجواب هو لخدمة الفكرة التي وضعها نصب عينيه ليعيد موسى عليه السلام مرة أخرى إلى شمال غرب الجزيرة العربية بعد الخروج من مصر إلى هذا الطور في بلاد الحجاز**!!**

ولكنَّ هناك أمراً يحتاج إلى التفكر، بناء على النظر في الآيات القرآنية الكريمة ودلالة الطور في المواضع المختلفة، هو أن هناك أكثر من طور: فهناك الطور الذي آنس منه موسى عليه السلام ناراً ونبّئ عنده، وله أسماء: الطور، والوادي المقدس طوى، وطور سينين.

وهناك الطور الذي ذهب إليه موسى عليه السلام بعد الخروج من مصر، وهذا الطور زال لمّا تجلى عليه الله تعالى وجعله دكاً.

وهناك الطور الذي رُفع فوق بني إسرائيل كأنه ظُلّة.

وهذه (الأطوار) كلّها في أرض سيناء، لا في الحجاز، فقد وردت في بعض المواضع بالإضافة: طور سيناء، وطور سينين، وجاءت من غير إضافة في مواضع أخرى، والسياق وما ورد من تفسير للآيات يدلان على أنها كانت في سيناء.

(٥)

طريق الخروج من مصر

(ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)

القضية التي شغلت المؤلف وأقام عليها كتابه هي أن بني إسرائيل لم يتجهوا نحو سيناء أو بلاد الشام بل اتجهوا شرقاً ثم جنوباً وقطعوا البحر الأحمر نحو الحجاز.

وقد أورد في سياق حديثه للدلالة على ذلك قولاً اعتمد فيه على العهد القديم خالف القرآن الكريم ومنطق الأحداث:

«وفي نهاية الأمر قبل فرعون أن يطلق بني إسرائيل وسمح لهم بمغادرة مصر مع موسى» (ص١٧).

والسؤال هو: إذا كان فرعون قد سمح لهم بالمغادرة فلماذا تبعهم بجيشه؟ والحقيقة أن فرعون لم يأذن لهم بالخروج، بل استنفر جيشه وشعبه لاستئصالهم:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ

وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[الشعراء: ٥٢ - ٦٠].

وأورد المؤلف نصاً من العهد القديم استنتج منه أن بني إسرائيل ساروا نحو الجنوب على ساحل البحر الأحمر، والنص هو:

«وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، فأدار الله الشعب في طريقه برية بحر سوف» (ص١٨).

وأتمنى على المؤلف وعلى القراء أن يرجعوا إلى أي خريطة لمصر وجزيرة العرب، وليبحثوا عن نقطة انطلاق بني إسرائيل ثم الوجهة المتوقعة لهم لنفهم هذا النص الذي أورده المؤلف من العهد القديم. وما أتصوره أنا أن بني إسرائيل انطلقوا من منطقة هي حول القاهرة اليوم حيث آثار الفراعنة، واتجهوا شرقاً، وكان من المتوقع أن يتجهوا إلى الشمال الشرقي ليعبروا سيناء برّاً، حيث لم تكن قناة السويس قد شُقت. وهذا الذي أراده النص من قول طريق أرض الفلسطينيين ولو فعلوا ذلك لساروا نحو البر. ولكنهم اتجهوا شرقاً (في طريق برية بحر سوف) أي الطريق المؤدي إلى شاطئ البحر وليجدوا أنفسهم في مأزق، فالبحر أمامهم، وجيش فرعون وراءهم، وليخافوا من إدراك فرعون وجيشه لهم، ولو نظرنا إلى المسافة التي تتيح لهم العبور من نقطة مواجهة للجزيرة العربية من غير مرور بسيناء لوجدناها مسافة طويلة لم تكن متاحة لهم وجيش فرعون يتبعهم، ولذلك فإن الوجهة المتوقعة والمنطقية هي الشرق، وشق الله تعالى لهم البحر وخرجوا نحو أرض سيناء

ولعل مما يؤيد ذلك، أن نتذكر قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٢١] فهذا القول يعني التوجه نحو الأرض المقدسة (فلسطين). ويدل على أن الله تعالى قد كتبها لهم في ذلك الزمان، فلماذا يتجهون إلى الجزيرة العربية؟!

ولنقف على ما قاله المفسرون في هذه الآية:

قال الزمخشري: «الأرض المقدسة يعني: أرض بيت المقدس، وقيل: الطور وما حوله، وقيل: الشام، وقيل فلسطين وبعض الأردن. وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثاً لولده حين رُفع على الجبل، فقيل له: انظر، فلك ما أدرك بصرك، وكان بيت المقدس قرار الأنبياء، ومسكن المؤمنين» (الكشاف ٦٢٠/١).

وجاء في تفسير ابن كثير: «ثم قال الله تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد. والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام. ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة وعليهم، فنكلوا وعصوا، وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه، والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال:

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾

أي المطهرة. وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور و ما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وروى سفيان الثوري عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس، قال: هي أريحاء وكذا ذكر غير واحد من المفسرين. وفي هذا نظر، لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلاّ أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله السُّدي فيما رواه عنه ابن جرير، لا أنّ المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس.

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنّه وراثة من آمن منكم» (تفسير القرآن العظيم ٣٩/٢).

ولنقف طويلا عند جملة: «أنه وراثة من آمن منكم» فهي تدل على أن أرض فلسطين ميراث المؤمنين.

وقال ابن كثير في تاريخه:

«والمقصود أن موسى عليه السلام لمّا انفصل من بلاد مصر وواجه بيت المقدس وجد فيها قوماً جبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس، فإن الله

كتبه لهم، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل أو موسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلّط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه» (البداية والنهاية ٢٥٩/١).

وقال عارف العارف:

«عندما خرج بنو إسرائيل من مصر على عهد فرعونها رمسيس الثاني وولده مرن بتاح، وكان ذلك عام ١٣٥٠ قبل الميلاد اجتازوا بقيادة زعيمهم موسى صحراء سيناء، وقد تاهوا فيها أربعين عاماً، حاولوا في بادئ الأمر دخول فلسطين من ناحيتها الجنوبية فوجدوا فيها قوماً جبارين، عندئذ ذهبوا إلى جبال أدوم ومؤاب والبلاد الواقعة شرقي الأردن..» (المفصل في تاريخ القدس ص ٨).

وقد حاول عبد الوهاب النجار تحديد مكان عبور بني إسرائيل فقال: «أما موقع العبور فلم يُعلم بالضبط، والتوراة تورد أسماء أمكنة مرّ بها بنو إسرائيل حتى أتوا إلى مكان العبور، وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم. والبحارة في البحر الأحمر يُسمون مكاناً في خليج السويس (بركة فرعون)، ويقولون إن العبور كان بها، وهي بعيدة عن السويس كثيراً تمرّ بها السفن التجارية بعد منتصف الليل إذا قامت من السويس في المساء، وإني لأستبعد ذلك كثيراً. وأعتقد أن خليج السويس كان يمتدّ في تلك الأزمان إلى البحيرة المرة أو بقرب منها. وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم. بعبارة أخرى أنهم عبروا مكان شمالي المكان المعروف بـ «عيون موسى» في البرّ الآسيوي، وهي لا تبعد عن السويس كثيراً.

وبين يدي أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت «مساعد مراقب تعليم البنات في وزارة المعارف الآن سنة ١٣٦» وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس وبين البحيرة المرة، ورسم خطّين يدلان على أن خليج السويس كان متصلاً بالبحيرة المرة، وأحسب أنه على صواب». (قصص الأنبياء ص ٢٠٣ – ٢٠٤).

(٦)

سأريكم دار الفاسقين

ممّا خاطب الله تعالى به نبيّه موسى عليه السلام في الميقات:

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِى ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَىۡءٍ مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَىۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤ - ١٤٥].

وجاء في تفسير ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾: «أي من أهل الشام، وأعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون. والأوّل أَوْلى، والله أعلم، لأنّ هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه». (تفسير القرآنالعظيم ٢/٢٥٧)

وقال عبد الوهاب النجار: «الأقرب ما قاله قتادة من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام. ولا أريد بهذه الرؤية ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنهم دخلوا بلاد الجبارين، وهي الأرض التي كتب الله لهم، لأن الله تعالى حرّمها على الكبار من بني إسرائيل وموسى لم يدخلها، وإما رآها فقط،

وإنما دخلها بنو إسرائيل مع يوشع بن نون، فتى موسى (...) ولعل المعنى: سأري بعضكم وهم الرّواد الذين دخلوا البلاد ثم عادوا إلى بني إسرائيل بخبر أولئك الجبارين، فهال بني إسرائيل أمرهم، وعصوا عن مقاتلتهم، والأقرب أن يكون المراد بالبعض: يوشع بن نون، وكالب بن يفنه. (قصص الأنبياء ص ٢١٧).

(٧)

حجر موسى بالشام

ورد في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد جاء في تفسيرها ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى عليه السلام كان رجلاً حييّاً ستّيراً، لا يُرى من جلده شيءٌ، استحياءً منه. فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يتستر إلا من عيب في جلده، إمّا برص أو أُدرة، وإما آفة. وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل، فلما أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً.. (تفسير القرآن العظيم ٥٢٨/٣).

وقد ورد حديث بين أن هذه الحادثة وقعت في بلاد الشام لا في الجزيرة العربية خلافاً لرأي الحاج زكي الغول الذي ينفي توجه موسى وبني إسرائيل إلى سيناء أو بلاد الشام، ويرى أنهم

توجهوا إلى الجزيرة العربية، «فعن عبد الله بن شقيق قال: قال لي أبو هريرة رضي الله عنه: من أين أقبلت؟ قلت: من الشام. قال: فقال لي: هل رأيت حجر موسى؟ قلت: وما حجر موسى؟ قال: إن بني إسرائيل قالوا لموسى قولاً تحت ثيابه في مذاكيره، قال: فوضع ثيابه على صخرة وهو يغتسل، قال: فسعت ثيابه، قال: فتبعها في أثرها وهو يقول: يا حجر، ألقِ ثيابي حتى أتى على بني إسرائيل فرأوه مستوياً حسن الخَلْقِ، فلجبه ثلاث لجبات، فو الذي نفس أبي هريرة بيده لو كنت نظرت لرأيت لجبات موسى فيه». (الفتح الرباني ٨٦/٢٠ – ٨٧).

(٨)

قبر موسى

يقول الحاج زكي الغول: «أما هارون عليه السلام فقد توفي خلال فترة التيه، وبعده بسنوات ثلاث توفي موسى عليه السلام في صحراء الحجاز ودفن أيضاً هناك، ولم يخرج من الجزيرة العربية» (ص٢٩).

وهذا الذي ذهب إليه مخالف لصحيح الأحاديث التي اتفق على روايتها البخاري ومسلم، ومنها: أن موسى عليه السلام حين اقتربت وفاته: «سأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: لو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر. (فتح الباري ٥٠٨/٦، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٦/١٥-١٢٩).

وقال النووي في تعليل هذا الطلب «وأما سؤال الإدناء من الأرض المقدسة فلشرفها، وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم. «صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٨/١٥).

وقال ابن حجر: «وزعم ابن حبان أن قبر موسى بمدين بين المدينة وبيت المقدس. وتعقبه الضياء بأن أرض مدين ليست قريبة من المدينة ولا من بيت المقدس. قال: وقد اشتهر عن قبر بأريحاء عنده كثيب أحمر أنه قبر موسى. وأريحاء من الأرض المقدسة». (فتح الباري ٥٠٩/٦).

يضاف إلى هذا ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو

قائم يصلي في قبره». (صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/١٣٣).

ولا يخفى على مسلم أن للأنبياء في البرزخ حياة خاصة، وقد صح في أحاديث الإسراء أن النبي محمداً ﷺ قد جُمع له الأنبياء، وصلى بهم إماماً في المسجد الأقصى، وأنه لقي عدداً منهم في السماوات العُلى عند عروجه إليها، ومنهم موسى عليه السلام.

ولعل حديث طلب موسى عليه السلام أن يدنيه الله تعالى من الأرض المقدسة رمية بحجر يشير إلى أن أرض التيه لم تكن في سيناء وحدها بل امتدت إلى شرقي الأردن وبادية الشام، أي أن بني إسرائيل تاهوا في البلاد المحيطة بفلسطين جنوباً وجنوب غرب وشرق. ولعل مما يشهد لذلك ما أورده الزمخشري في بيان بلاد التيه بقوله:

«وبلاد التيه ما بين بيت المقدس إلى قنسرين، وهي اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ» (الكشاف ١/١٤٢).

(٩)

يوشع بن نون وفتح بيت المقدس

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الشمس لم تحبس على بشر إلاّ ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس» (الفتح الرباني ٢/١٠٤).

وللحديث رواية أخرى في الصحيحين وغيرهما فيها شيء من التفصيل من غير ذكر لاسم النبي أو بيت المقدس ولكن وردت فيها الإشارة إلى حبس الشمس مما يجعل الحديثين يفسّر أحدهما الآخر، والحديث مروي عن أبي هريرة كذلك:

«غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني منكم رجل ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلِفات وهو ينظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه...». (صحيح الجامع الصغير ٢/٧٦٢).

وقد ذكر الشيخ ناصر الدين الألباني في هوامشه على الحديث بأن النبي المقصود في هذا الحديث «هو يوشع بن نون كما هو في رواية لأحمد بإسناد جيد خرجته في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٠١ طبعة المكتب الإسلامي». (هامش رثم ٣ صفحة ٣٠١ مختصر صحيح مسلم. وذكر في الهامش رقم ٨

أن القرية الواردة في الحديث هي بيت المقدس كما في رواية أحمد المشار إليها، وأمّا ما في الفتح أنها «أريحا» فمن أوهامه كما بينت في المصدر السابق).

وقد أشارت إلى هذه الحادثة الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

قال ابن كثير: «والصحيح (...) أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح (تفسير القرآن العظيم ١٠٢/١).

(١٠)

القرية التي كانت حاضرة البحر

ورد في سورة البقرة والأعراف خبر القرية التي كانت حاضرة البحر، في تحايل أهلها على يوم السبت الذي منعوا فيه من الصيد، فكانت عاقبتهم أن مُسخوا قردة خاسئين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥ - ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال ابن كثير: «وهذه القرية هي أيلة على شاطئ بحر القلزم» وأورد عن ابن عباس أنها أيلة، وقيل: مدين، وهي رواية عن ابن عباس. وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها: معنا،

بين مدين عينونا، (انظر: تفسير القرآن العظيم ١٦٧/٢).

وجاء في فتح الباري قول ابن حجر «والجمهور على أن القرية المذكورة أيلة، وهي التي على طريق الحاج الذاهب إلى مكة من مصر. وحكى ابن التين عن الزهري أنها طبرية..» (فتح الباري ٥٢٢/٦).

(١١)

إن الله مبتليكم بنهر

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك بني خلفه نبي، وإنّه لا نبيّ بعدي (فتح الباري ٥٧١/٦).

وقد حدثنا القرآن الكريم أن بني إسرائيل قد طلبوا من نبي لهم أن يبعث الله عليهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله بعد أن أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم في بعض جولات الصراع مع أعدائهم، فجعل الله تعالى عليهم طالوت ملكاً، وقد وضع طالوت شرطاً لمن يرافقه في قتال الأعداء أن يمتنع عن الشرب من نهر يمرون عليه إلا من اغترف غرفة بيده قال تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال ابن كثير في بيان هذا النهر: «قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور» (تفسير القرآن العظيم ٣٠٩/١ – ٣١٠).

وكذا قال في تاريخه إلا أنه أضاف أقوالاً أخرى:

«قال ابن عباس وكثير من المفسرين هذا النهر هو نهر الأردن وهو المسمى بالشريعة» (البداية والنهاية ٨/٢).

وقال في بيان موضع قتل داود لجالوت «وكان قتله فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصُفَّر» (المصدر السابق ص ٩).

«وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية. فالله أعلم». (المصدر السابق ص ١٠).

والملاحظ أن الموضعين اللذين ذكرهما المفسرون والمؤرخون يقعان في بلاد الشام، ولعلنا نتذكر أن موضعاً في الغور قرب بيسان يسمى «عين جالوت» لعله يشير إلى تلك المعركة التي قتل فيها نبي الله داود عليه السلام قائد أعداء بني إسرائيل : جالوت.

(١٢)

داود وسليمان عليهما السلام

أورد الحاج زكي الغول مجموعة من الشبهات والأسئلة حول النبيَّيْن الكريمين: داود وسليمان عليهما السلام.

بعض هذه الأسئلة والشبهات منه، وبعضها أورده في الملاحق من غير تعليق مما يوحي بموافقته على مضمونها.

فهو يتساءل عن المكان الذي وُجد فيه بنو إسرائيل منذ عهد موسى عليه السلام حتى مجيء داود فيقول: «قطعاً لم يكونوا في فلسطين، لأنه لا تاريخ لهم فيها ولا آثار. وسبب هذا أنهم لم يكونوا في فلسطين، ولم يحكموا فيها، لأن انتشار اليهود كان في الجزيرة العربية فقط، وأن السبي البابلي تمّ من الجزيرة العربية» (ص٣٠).

ويورد رأي عالم الآثار (الإسرائيلي) فنكلشتاين بشأن داود وسليمان عليهما السلام: «يشكك فنكلشتاين في قصة داود التوراتية الأكثر ارتباطاً بالقدس حسب اعتقاد اليهود، فلا يوجد أساس أو شاهد أو إثبات تاريخي على وجود هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له، والذي سيأتي (المسيا) من صلبه للإشراف على الهيكل الثالث. إن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحّد مملكتي يهوذا وإسرائيل هي مجرد خيال ووهم ولم يكن لها وجود حقيقي وفقاً لما يقوله.

ويضيف فنكلشتاين مؤكداً أن وجود باني الهيكل وهو

سليمان بن داود مشكوك فيه أيضاً، حيث تقول التوراة إنه حكم إمبراطورية تمتد من مصر حتى نهر النيل رغم عدم وجود أي شاهد أثري على أن هذه المملكة المتحدة المترامية الأطراف قد وجدت بالفعل في يوم من الأيام، وإذا كان لهذه الممالك وجود فعلي فقد كانت مجرد قبائل، وكانت معاركها حروباً قبلية.

أما فيما يتعلق بهيكل سليمان فلا يوجد أي شاهد أثري على وجوده (...) ومهما كان الأمر فربما كان هناك داود وسليمان لكنّهما لم يكونا قائدين عظيمين، وإنما شيخا قبيلة متوسطة الحجم في القرن العاشر قبل الميلاد» (ص٤٣ -٤٤) نقلاً عن جريدة الدستور).

ويورد الحاج زكي الغول تساؤلات عن سليمان وبلقيس، ويرى أن سليمان كان يقيم في اليمن، ويستدل على ذلك من قصة الهدهد الذي (مكث غير بعيد) واستنتج من ذلك أن سليمان لم يكن يبعد آلاف الكيلو مترا عن سبأ بل عشرات الكيلو مترات. (انظر ص ٣١ – ٣٢).

ويستدل على وجود سليمان في اليمن بأن وادي النمل وعين القطر موجودان هناك. وكلمة منسأة التي تعني العصا حبشية كانت معروفة في اليمن (ص٣٤).

واستدل على عدم وجود سليمان في الأرض المباركة أن القرآن الكريم ذكر أن الريح كانت تجري بأمره إلى الأرض المباركة، وفهم من ذلك قوله:

«وهذا كلام واضح يخبرنا أن سليمان لم يكن في أرض مباركة، وأن الريح من عنده تجري إلى الأرض المباركة التي

بارك الله فيها، وسط الحجاز عند الوادي المقدس طوى، وعند البيت الحرام، وفلسطين عند المسجد الأقصى، كلها أرض مباركة، وسليمان لم يكن مقيماً في أي منها». (ص٣٥).

إنني أكرر ما ذكرته من قبل من أنني لست معنياً بما ورد في التوراة أو العهد القديم من معلومات عن داود وسليمان، عليهما السلام، ولا عن دعاوى اليهود وتحريفاتهم، بل الذي يعنيني هو ما ورد عنهما في القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة، وهو جزء من عقيدة المسلم التي ينبغي أن تبقى في منأى عن التشكيك والشبهات.

فماذا حدثنا القرآن الكريم والسنة النبوية عن داود وسليمان عليهما السلام؟

وهل كانا شيخي قبيلة متوسطة الحجم؟

وهل هما شخصيتان وهميتان مشكوك في وجودهما؟

لقد قدم القرآن الكريم صورة عن داود وسليمان تخالف ما ذهب إليه الحاج زكي الغول وما نقله عن فنكلشتاين.

أما داود عليه السلام، فقد آتاه الله الملك والحكمة، أي الملك والنبوة :

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وسخر الله مع داود الجبال والطير يُسَبِّحن معه:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]،

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ١٨ - ٢٠].

ووصفه الله تعالى بأنه ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، أي القوة، وبيّن تأييده بالجند ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص: ٢٠].

وجعله الله تعالى خليفة في الأرض وأوصاه بالعدل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وكان داود ذا علم بالصناعات الحربية :

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فهل هذه الصورة القرآنية صورة شيخ قبيلة أم صورة نبي آتاه الله ملكاً استحق أن يُذكر في القرآن الكريم؟

وهل نستطيع أن نقول بعد هذا: إن شخصية داود مشكوك فيها؟!

ولئن وردت شخصية داود عليه السلام مجملة الصورة في القرآن الكريم فقد جاءت صورة سليمان عليه السلام أكثر تفصيلاً. فنحن أمام رجل حكيم تفتحت حكمته في حياة والده قبل

أن يرث ملكه ويصبح نبياً:

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩].

وكان سليمان ووالده داود عليهما السلام صاحبي علم أحسّا بفضله فشكرا الله تعالى عليه:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

ولما ورث سليمان أباه في الملك والنبوة فتح الله عليه وآتاه من ألوان العلم والقوة التي تميّز بها على غيره من عباد الله:

فقد سخر له الرياح :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ [سبأ: ١٢]،

وسخر الله له الجن:

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الأنبياء: ٨٢]،

﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَـٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

وعلمه الله تعالى منطق الطير وخطاب النمل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: ١٦]،

وفهم تحذير النملة للنمل:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٩]،

وكان له جيش متعدد الأجناس:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

وكان له من جنده من يستطيع نقل الأشياء البعيدة في وقت قصير:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

وكان له من الجند من يستطيع أن يقيم صرحاً من الزجاج الذي يجري الماء من تحته:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ [النمل: ٤٤].

وكان سليمان ذا ملك لم يتم مثله لأحد من بعده فقد دعا الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]

واستجاب الله تعالى دعاءه.

فهل نشك بعد هذا البيان القرآني الكريم في شخصيته ووجوده وقدراته وسعة ملكه؟

وهل نهوّن من شخصيته ونختزلها في صورة شيخ قبيلة تعيش على هامش التاريخ؟

لقد عاش سليمان عليه السلام في الأرض المقدسة في فلسطين لا في اليمن. وجدَّد بناء المسجد الأقصى، وعبد الله فيه، لأن المسجد الأقصى كان موضع تقديس الأنبياء جميعاً، وكان قبلة الأنبياء، بل كان قبلة المسلمين قبل أن تحوَّل نحو البيت الحرام. وكان بيت المقدس قبلة اليهود التي ورثوها عن أنبيائهم.

وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدل على صلة سليمان عليه السلام بالقدس في قول النبي ﷺ:

«إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه، فأوتيه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيه. وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلاّ الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه. أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة» (صحيح الجامع الصغير ٤٢٠/١).

وهذا الحديث الصحيح يدل على أن سليمان عليه السلام قد بنى بيت المقدس، وأنه جدد بناء المسجد الأقصى، وقد فهم ذلك علماء الإسلام عبر العصور من مفسرين ومؤرخين وغيرهم.

قال ابن القيم: «المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض كما في الصحيحين عن أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض فقال: المسجد الحرام. قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى: قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون عاماً».

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام. وهذا من جهل القائل، فإن سليمان إنّما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه. والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار» (زاد المعاد ٤٩/١ – ٥٠).

وأما ما أورده الحاج زكي الغول من شبهات حول قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ فأمرها يسير إذا عدَّلنا منهج الفهم، وسلمنا بالنصوص الصحيحة التي أخبرت أنه كان ببيت المقدس، وأنه كان له من الجند والقوة ما يجعله يطوي الأرض، فالريح مسخرة له، والجن من جنده ومسخرون له، فهل من العسير عليه أن ينتقل من أرض إلى أرض بعيدة في وقت قصير؟

ولذلك يستوي عندنا أن يكون وادي النمل في الشام أو في اليمن. (انظر: تفسير القرآن العظيم ٣٧١/٣). أو أن تكون عين القطر في اليمن كذلك (انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٣٧/٣).

وقد فهم الصحابة من الآية التي تتحدث عن موت سليمان أنه كان في بيت المقدس (انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٣٧/٣).

ولا يستقيم احتجاج الحاج زكي الغول بكلمة منسأة أنها حبشية كانت متداولة في اليمن، فكم من القبائل العربية ارتحلت من اليمن إلى بلاد الشام والعراق وأنحاء الجزيرة العرب، وحملت معها الألفاظ التي كانت شائعة من عربية ومعرّبة.

ولا أدري كيف استقام له فهم الآية الخاصة بالريح على غير ما فهم المفسرون ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٨١]

وأي دليل في الآية على أنه يُجري الريح من عنده إلى أرض أخرى غير التي كان فيها. وإذا لم تكن له صلة بالأرض المباركة فلماذا يجري الريح إليها؟ وإنما يفعل ذلك لمصلحة تكون له أو للأرض التي يجريها إليها.

والاحتجاج بقصة الهدهد ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾للدلالة على أنه كان في اليمن احتجاج واهٍ، ودليل بعيد، لأن هناك احتمالات متعددة يمكن أن يفهم بها النص بعيداً عن فهم الحاج زكي الغول. فمن الذي أدراه بمكان سليمان حين سأل عن الهدهد؟

ولماذا افترض أنه كان في مكان بعيد آلاف الكيلومترات؟

ليس هناك دليل على ذلك، بل الدليل الوارد في القصة يوحي أن سليمان كان قد خرج في جيشه في حملة عسكرية جمع لها أجناس الجند، ومر على وادي النمل... وتوغل في الجزيرة العربية. وكون الهدهد (مكث غير بعيد) لا يستنتج منه أنه يبعد عن ملكة سبأ عشرات الكيلومترات لأن القصة لا تحدد مدة غيابه ولا موعد سؤال سليمان عنه.

وهناك سؤال أرجو أن يتدبره الحاج زكي الغول والقارئ معاً: كيف نفترض أن سليمان كان في اليمن، في جوار ملكة سبأ ثم لا يعرف عنها شيئاً حتى يأتيه الهدهد بخبرها:﴿أَحَطتُ

بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢]

ذلك أمر بعيد عن رجل آتاه الله من الملك ما لم يؤت أحداً من بعده، وسخر له من الجند: جناً وإنساً وطيراً.

فهل نشك بعد هذا في شخصية سليمان؟

وهل نقبل شبهات اليهودي فنكلشتاين حول وجوده؟

وهل نقبل نفيه من بلاد الشام إلى اليمن وبين أيدينا دليل نبوي صحيح صريح، وأفهام المفسرين وأهل العلم للآيات الخاصة به؟!

وهل يصح أن يقال إنه كان شيخ قبيلة فحسب؟!!

(١٣)

هل كان المسيح عليه السلام في اليمن؟

أرجو ألاّ يصدم هذا السؤال القارئ الكريم؟

ولكنني مضطر لتوجيهه إلى الحاج زكي الغول الذي قال: «وحين جاء المسيح عليه السلام بدين النصرانية كان اليهود في اليمن، وهم الذين أوغروا صدر ملك تبع على أن يحارب الذين تنصروا في اليمن وذلك خوفاً على نفوذهم لدى ملك تبع، وخوفاً من أن يُنَصَّرَ أهل اليمن فيخسر اليهود مكاسبهم ومكانتهم بين السكان. وكان أن أُحرق النصارى في الأخدود، وكما جاء في القرآن الكريم في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ [البروج: ٤ - ٧].

والمؤمنون هنا هم الذين اتبعوا المسيح عليه السلام، واعتنقوا دين النصرانية الذي انتشر في جنوب الجزيرة العربية ومنها انتقل إلى الجهة المقابلة لليمن من جهة الغرب (الحبشة). (ص٢٩ -٣٠) فهل أراد الحاج زكي الغول أن يقول: إن المسيح قد ظهر في اليمن لا في فلسطين؟ وأن ما في فلسطين من معالم النصرانية: كنيسة المهد، وكنيسة القيامة وغيرها تمثل تاريخاً من الوهم؟

وكيف انتشرت النصرانية في بلاد الشام من بعد؟

وإذا لم يقل الحاج زكي ذلك فسؤالي هو: إلى من أرسل المسيح عليه السلام؟

لقد نصّ القرآن الكريم على أن المسيح عليه السلام قد أرسل إلى بني إسرائيل: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإما أن يكون من أرسل إليهم موجودين حيث كان في بلاد الشام، وإما أن يكون هو حيث كانوا كما يرى الحاج زكي الغول في اليمن!!

ويرتبط بقصة المسيح عليه السلام النبي زكريا عليه السلام الذي كفل مريم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام الذي أُرسل هو وأبوه إلى بني إسرائيل، ويحيى وعيسى ابن خالة كما ثبت في أحاديث الإسراء والمعراج، فأين كانوا وأين كان بنو إسرائيل؟

ورسالة المسيح عليه السلام كانت الإنجيل، والإنجيل مرتبط بالتوراة، وهذا يعني أن المسيح عليه السلام الذي بعث في فلسطين كان معه فيها قومه من بني إسرائيل فكذبوه وعاندوه وحاولوا قتله، وكانوا من قبل قد قالوا في مريم البتول قولاً عظيماً من البهتان حين جاءت بالمسيح وليداً تحمله فقالوا لها:

﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٧].

وقد كان لوجود بني إسرائيل في فلسطين حين ظهر المسيح عليه السلام امتداد في التاريخ يرتبط بداود وسليمان اللذين كانا ملكين في هذه البلاد يحكمان بشرع الله وما أُنزل عليهما.

وأَمْر المسيح عليه السلام وارتباطه ببني إسرائيل أظهر من

أن يستشهد له بشواهد، ولكن لا بد من ذلك ليكون حجة دامغة تدعو إلى المراجعة والتدبّر:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

- ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ١١٠].

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف: ٦].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

(١٤)

إفسادتا بني إسرائيل

مما يستحقّ التأمّل في سورة الإسراء هذا الترتيب اللافت للنظر على النحو التالي:

١- الحديث عن إسراء النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

٢- الحديث عن إيتاء موسى الكتاب وجعله هدى لبني إسرائيل: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾[الإسراء: ٢].

٣- الإشارة إلى كونهم من ذرية نوح العبد الشكور:﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء: ٣].

٤- الحديث عن إفسادتين لبني إسرائيل: من الآية ٤ – ٨.
﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا

عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

وفي هذا الحديث إشارة إلى كون المسجد أي المسجد الأقصى موضع صراع بينهم وبين قوم آخرين يجوسون الديار التي يكون أو كان فيها بنو إسرائيل، ثم رد الكرة لبني إسرائيل عليهم ثم عودة لهؤلاء القوم ليسوءوا وجوه بني إسرائيل ويدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة.

فعن أي أرض تتحدث هذه الآيات وعن أي مسجد؟

أتراها تتحدث عن اليمن أم عن الحجاز؟

إذا رجعنا إلى كتب التفسير وجدنا اتجاهين أو منهجين في فهم هذه الآيات وبيان إفسادتي بني إسرائيل:

الاتجاه الأول: في كتب التفسير التي سبقت عصرنا وما أخذ عنها من كتب التفسير المعاصرة، ومن ذلك ما جاء في تفسير ابن كثير:

«وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة أن جالوت

الجزري وجنوده سلطوا عليهم أولاً ثم أديلوا عليهم بعد ذلك، وقتل داود وجالوت ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.. وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده. وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل (...) وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل(...) وقد أخبر عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير (...) عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس (...)﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس...» (تفسير القرآن العظيم ٢٧/٣ ــ ٢٨).

لقد فهم المفسرون القدماء أن بني إسرائيل كانوا في فلسطين وأفسدوا فيها فسلط الله عليهم من سامهم سوء العذاب في عصور ماضية.

ولنقف مع تفسير يجمع ما قاله السابقون مع فهم جديد يقدمه لهذه الآيات هو تفسير سعيد حوى الذي أورد أقوال ابن كثير وغيره ثم قال بعد نقاش: «يبدو بما لا يقبل الجدل أن الإفسادة الأولى هي التي سلط الله عليهم بها بختنصر، فهي الإفسادة التي رافقها بغي وطغيان وعتو، والتي يدور حولها كثير من كلام العهد القديم، وما قبل ذلك لا نعرف أنه حدث لبني إسرائيل مثل هذا الدمار، ولم يحدث أن قوماً سيطروا على المسجد الأقصى وجاسوا خلال الديار، فهل الإفسادة الثانية هي ما نراه الآن...» (الأساس في التفسير ج٦ ص ٣٠ ــ ٣٩).

هذا الفهم وفهم المفسرين القدماء يدل على وجود بني إسرائيل في فلسطين، وتعرضهم لغزو عدو لهم سيطر على البلاد التي كانوا فيها وعلى المسجد الأقصى.

وهناك فهم آخر يذكره المؤلف يرى أن الإفسادة الأولى كانت في المدينة حين وقف اليهود في وجه الدعوة الإسلامية والإفسادة الثانية هي التي نحن فيها (انظر: الأساس في التفسير ج٦ ص ٣٠٤٠ وما بعدها). وهذا المعنى بعيد لأن سورة الإسراء تتحدث في الإفسادتين عن مسجد واحد لا عن موقعين مختلفين .

وهذه الآيات دليل آخر على صلة لبني إسرائيل بفلسطين والمسجد الأقصى. صلة كانت من قبل وصلة من بعد هي الإفساد الذي نعيشه اليوم ويصطلي بناره أهل فلسطين. ولعله هو الذي أخبر عنه الرسول ﷺ في روايات متعددة عنه:

- «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» (صحيح الجامع الصغير ١٢٣٨/٢ والحديث رواه مسلم).

أما بعد:

فإن نفي صلة بني إسرائيل بفلسطين هو نفي لتاريخ النبوة فيها. وإن أنبياء الله عبر العصور وإلى كل الأمم كانوا مسلمين ودعاة إلى الإسلام، وأتباع الأنبياء عبر العصور ممن لم يُحَرِّفوا كتب الله ولم يضلوا عن سبيل الله ولم يكذّبوا برسل الله، ولم يقتلوهم، هم إخوة في العقيدة، وإن اختلف الأعراق والأوطان.

وإن المسجد الأقصى هو بيت الله، بناه أنبياء، ورعاه عبر التاريخ البشري أنبياء، وصلى فيه أنبياء ومؤمنون. وقد كان كل

نبي يورثه لمن بعده وراثة عبادة ورعاية وذكر لله فيه.

ونحن المسلمين الأمة الوارثة لمن سبقنا من الأمم، ونبينا محمد ﷺ هو النبي الخاتم، إمام الأنبياء، الذي جاءه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه والمهيمن عليه فلا حقّ لغيرنا في المسجد الأقصى. وتحت حكم الإسلام حفظت معابد غير المسلمين ودماؤهم وأموالهم، ونالوا حقوقهم الإنسانية. ونحن الأمة التي جزء من إيمانها الإيمان برسل الله.

إنني آمل أن يكون فيما قدمت من أدلة في الحوار مع الحاج زكي الغول ما يجعله يراجع نظريته ليقدم لنا تصوراً يوافق الكتاب والسنة وما تواتر لدى علماء هذه الأمة في القضية التي شغلت باله، وباعثه في ما كتبه وأراد الوصول إليه باعث وطني فهو يريد أن ينفي حق اليهود اليوم في فلسطين وهذا ما نوافقه عليه، فنفى صلتهم بفلسطين عبر التاريخ وهذا ما نخالفه فيه.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٥، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٣. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي العليمي، تحقيق محمود الكعابنة، مكتبة دنديس، الخليل/ عمان، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٢م.
٤. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٥. بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين، الحاج زكي الغول، دار الكرمل، عمان ط١/ ٢٠٠١م.
٦. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/٤٩٨٨م.
٧. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٨. صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩. صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، القاهرة (د. ت).

١٠. فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محيي الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ.

١١. الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة، (د. ت).

١٢. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار الفكر، بيروت (د. ت).

١٣. الكشاف عن حقائق التنزيل، للإمام الزمخشري، دار الريان، القاهرة، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١٤. معجم البلدان، ياقوت الحموي، موقع الوراق، شبكة الإنترنت.

١٥. المفصل في تاريخ القدس، عارف العارف، مكتبة الأندلس، القدس، ط١، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

الفهرس

تم بحمد الله